الفصل الثامن

ختام عصر النبوة

لم يكن رسول الله (ص) ، حتى السنة العاشرة للهجرة ، قد أدى فريضة الحج ، وإنما قام بأداء العمرة ، وعزم على ان يؤدي ، في تلك السنة فريضة الحج . ولما انتشر الخبر بين المسلمين في الحجاز ، واطراف جزيرة العرب ، توافد الناس افواجا ليحجوا مع الرسول ، وليشهدوا منه مناسك الحج ، فيكون لهم قدوة فى حجهم ، وتجمع في المدينة ، وحولها ، اكثر من مائة ألف مسلم ، يقصدون الحج . وزحف هذا الجمع من الوف البشر نحو مكة . وفي الطريق أحرموا ، فلبسوا لباس الحج البسيط ، فأصبحوا كرجل واحد ، في زيهم ، تملأ الجو أصوات التلبية ينادون بها ، كما يفعل رسول الله (ص) . وبعد أن طاف النبي (ص) بالكعبة ، وسعى بين الصفا والمروة ، ذهب إلى منى ، وقضى ليلته فيها. وفي الصباح ، اتجه إلى جبل عرفات ، وهناك ألقى في المسلمين خطبته الخالدة ، التي تعتبر جامعة أصول الإسلام وقواعده ، وقال :

« أيها الناس، إني والله ماادري لعلي لاالقاكم بمكانى هذا، رحم الله امرأ سمع مقالتي فرعاها ، فرب حامل فقه إلى من هو افقه منه بعد

يومكم هذا ، واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . واعلموا ان للصدور لا تغل على ثلاث : إخلاص للعمل لله ، ومناصحة أهل الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، إلا أن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، وأول دماء الجاهلية أضع دم إياس بن ربيعة الحارث بن عبدالمطلب ـ كان مسترضعاً في بني سعد بن بكر فقتله هذيل ـ وربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أضعه ربا عباس بن عبدالمطلب . اتقوا الله في النساء ، إنما اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم احداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن ، فعلن ، فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين ، فلهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . قد تركت فيكم مالا تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت » .

تمت رسالة النبي (ص) ، وهو واقف بعرفة ، حيث أنزل الله تعالى عليه هذه الآية ، في سورة المائدة . (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا) . وقد تلاها الرسول (ص) على المسلمين ، حين نزولها . فكان لها أبلغ الأثر في

نفوسهم . وعندما سمعها أبو بكر ، دمعت عيناه ، إذ أحس دنو أجل الرسول (ص) ، بعد أن انهى رسالة الله للناس كافة .

وقد سميت هذه الحجة . عند المسلمين ، (حجة الوداع) حيث ودع الرسول (ص) فيها وكعبتها . وسماها بعضهم (حجة البلاغ) ، وفيها انهى الرسول (ص) إبلاغ المسلمين رسالة ربه ، وسماها آخرون (حجة الإسلام) ، ففيها أكمل الدين ، وتمت النعمة .

انصرف المسلمون ، كل منهم إلى داره ، ومنازل قبيلته . وعاد محمد وصحبه إلى المدينة ، وقد اطمأن قلبه إلى الإسلام في جزيرة العرب بعد ما رآه ، في حجة الدفاع ، . ومن إقبال الألوف على الإسلام ، واستمرار مجيء الوفود ، تعلن إسلامها وولاءها للنبي الكريم . ولم يهتم الرسول (ص) اهتماماً كبيراً ، لسماعه أنباء انتقاض أناس ، وخروجهم على الإسلام . مثل (مسيلمة) ، الذي ادعى النبوة ، وكتب للرسول يريد مقاسمته الدنيا . وكذلك (الأسود العنسي) ، الذي قتل ابن (باذان) ، الذي ورث حكم اليمن بعد أبيه ، وتزوج بزوجة قتيله ، فكانت نهايته على يدها ، ويد بعض المسلمين ، الذين دبروا أمر التخلص منه .

منذ عودة النبي (ص) من غزوة تبوك ، كان يفكر في امر حدوده الشمالية ، ويخشى عليها الروم وحلفاءهم ، من غساسنة الشام وغيرهم . ومازال يذكر شهداء مؤته ، ومصير الجيش الذي أنقذه (خالد بن

للوليد). لهذا كله عزم على إرسال جيش كبير، وذلك بعد عودته من حجة الوداع. وأعلن بين المسلمين الاستعداد للخروج، وعهد إلى الشاب (أسامة بن زيد بن حارثة) بقيادة هذا الجيش، وكان لا يتجاوز العشرين من عمره. وضم الجيش كبار الصحابة من أمثال: أبي بكر وعمر. وقد استهدف الرسول، بعمله هذا، تكريم شهيد مؤتة (زيد بن حارثة)، في شخص ابنه (أسامة)، ليتابع حمل اللواء، الذي حمله أبوه، واستشهد وهو بيده. كما أراد أن يضع قاعدة تقوم على تشجيع للشبان، وتحميلهم المسؤوليات الجسام، مستفيداً من حماسهم، وقوة إيمانهم وحيويتهم. وقد استكمل الجيش استعداداته، وهو يتجمع ويتجهز قرب المدينة.

قبل بدء الزحف نحو الشام، انتشر خبر مرض رسول الله (ص) بالحمى، فحال ذلك دون مسير الجيش، وتوقف المسلمون، ينتظرون الأخبار عن صحة الرسول الكريم. وحين اشتد المرض عليه (ص)، تجمهر المسلمون خارج المسجد، وحول الدار، ولما علم بخبرهم، خرج، متحاملا على نفسه، يعتمد على عمه (العباس)، وابن عمه (علي)، وجلس على أولى درجات منبر المسجد، وحمد الله، ثم قال:

(أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي ممن بعث الله، فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم .... وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم

أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم في الثمار ، ألم يوسعوا لكم في الديار ؟..»

وعندما وصل به المرض إلى الحد الذي حال دون قيامه، أمر أن يصلي أبو بكر بالمسلمين ، ولم يقبل سواه إماماً لهم في صلاتهم . وكانت فاطمة تزور أباها في مرضه كل يوم ، فيسر بها، ويقبلها ، ويجلسها إلى جانبه ، وهي الوحيدة الباقية من عقبه . وقد أصابه ، في اليوم السابق لوفاته ، تحسن وصحة ، ولكنه كان الصحو ، الذي يسبق الموت . وقد استطاع أن يخرج إلى المسجد ، وأبو بكر يصلي بالمسلمين صلاة الصبح وكادوا يتركون صلاتهم، فرحا به، فصلى جالسا إلى جانب أبي بكر ، واستبشر المسلمون خيرا لرؤيته ، حتى استأذنه كبار صحابته بالذهاب لشؤونهم ، فأذن لهم .

وفي اليوم الثاني ، وهو يوم الاثنين ١٢، ربيع الأول سنة ١١ هـ، (٨ يونيه سنة ٦٣٢م) ، انتقل إلى جوار ربه ، وهو يقول: « اللهم أعني على سكرات الموت ». وكان في الثالثة والستين من عمره . بعد أن بلغ رسالة ربه ، وجمع قبائل العرب تحت لوائه ، وأقام دولة عربية إسلامية ثابتة الأركان ، متينة البنيان .

وكان وقع نبأ وفاة الرسول (ص) بين المسلمين ، مما لا يمكن أن يوصف لشدته ، حتى رفض بعض الصحابة. ومنهم (عمر بن الخطاب)، أن يصدقوه . وانكروا الوفاة ، واتهموا من يقول ذلك بالنفاق ، وكأنهم لم يسمعوا قوله فيهم ، منذ أيام قليلة ، إنه لاحق بربه ، وكأنهم في تلك اللحظة نسوا ما ورد في القرآن عن محمد ، أنه بشر ،

وأنه سيموت كغيره ، فقام عمـــر ، يتوعد ويهـــدد من يقول بوفاته ، ويؤكد أنه لم يمت ، وسيرجع ليقطع أيدي رجال زعموا أنه مات .

وجاء أبوبكر ، ودخل عليه ،فكـــشف عن وجهه ، وقال : « بأبي أنت وأمي ، يارسول الله ، طبت حياً ، وطبت ميتاً » ، ثم رثاه بكـــلام مؤثر ، وخرج ، فوقف بين الناس موقف الحكيم الراشـــد ، وتكلم فيهم ، إلى أن قال: « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لايموت .. وإن الله اختار لنبيه ماعنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وســـنة نبيه » ، ثم تلا قوله تعالى :« إنك ميت ، وإنهم ميتون » وقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » . وأنصت عمر ، وهدأت نفسه ، وثاب إلى رشده ، بعد سماعه كلام الله .

اختلف المسلمون في دفن للرسول (ص) : أفي مكة ؟ أم في البقيع؟ أم في المدينة ؟ وحسم أبو بكر هـذا الخلاف ، حين قال : « ما دفن نبي إلا مكانه ،الذي توفى فيه» . ودخل المسلمون غرفة النبي (ص) ،يودعونه ، ويلقون النظرة الأخيرة على زعيمهم ، ويصلون عليه ، دون أن يؤمهم أحد . وفي اليوم الثاني ، الثلاثاء (وقيل الاربعـــاء) دفن ، عليه الصلاة والسلام ، في الحجرة التي توفى فيها ، وبقيت زوجه ، عائشة ، بالغرفة المجاورة .